مجلة

الجمعية التاريخية السعودية

دورية • علمية • محكمة

تعنى بالدراسات التاريخية والحضارية

العدد السادس / السنة الثالثة

ربيع الآخر ١٤٢٣هـ / يوليو ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج البحث في العلوم الاجتماعية

د. محمد كميخ العتيبي *

ملخص:

تعد طريقة البحث من أهم الركائز التي يعتمد عليها تطور العلوم . وهذه الدراسة ما هي إلا محاولة لإيضاح بعض المفاهيم التي يتداولها كثير من الباحثين والقراء وكثيراً ما تختلط بعض معانيها ببعض. فقد ركزنا في هذا البحث على توضيح بعض المفاهيم في مقابل بعضها ، مثل: المعرفة ، والعلم، إذ إن المعرفة أكثر عمومية من العلم، والعلم أكثر تخصيصاً من المعرفة. كذلك محاولة التفريق بين المنهج العلمي، والبحث العلمي، من حيث طبيعة كل منهما رغم تلازمهما. بعد ذلك تطرق البحث إلى محاولة توضيح مفهومي (منهج) و (طريقة)، وأن كلا المفهومين يلتقيان في مفهوم واحد ، خاصة إذا كان المقصود من كل منهما الحديث عن إجراء البحث ووسيلته. بعد ذلك تناول البحث طريقة البحث بوصفها وسيلة اتصال بين الباحث والقارئ. ثم شملت المناقشة تداخل طرق البحث في علم الاجتماع، وأن كلا منهما يأخذ من الآخر في بعض الجوانب، ليقوم بتعزيزه في جوانب أخرى. وأخيراً تمت مناقشة علمية مناهج العلوم الاجتماعية ، خاصة علم الاجتماع في مقابل مناهج العلوم الطبيعية.

المصطلحات الأساسية: علم، معرفة ، طريقة منهج، بحث.

* أستاذ الاجتماع المشارك، قسم الدراسات الاجتماعية/ كلية الآداب / جامعة الملك سعود.

Abstract

Research method is an important for sciences development.

And this paper is an endeavor to clarify some concepts dealt with by some researchers. Such concepts as science and knowledge, where knowledge comprehend science while science more specific than knowledge. The other concepts are method and methodology where sometimes they have same meaning and sometimes not. Then research been dealt with as communication device between researchers themselves as well as between researchers and readers. Finally, there is a discussion of which consider more scientific method that of natural sciences or social sciences.

Keywords: method; methodology; research; knowledge; science

المقدمة

كلمة منهج كلمة دارجة على الألسنة بمختلف المستويات، يعرفها الإنسان العادي البسيط ونصف المتعلم كل حسب رؤيته. وقد لا يدرك عمق هذه الكلمة الإنسان العادي، إلا بما يخدم الجملة التي يعبر عنها بهذه الكلمة . فيقول: نهج فلان هذا النهج، أي ذهب مع هذا الطريق. فهنا كلمة نهج بمعنى ذهب وكلمة منهج بمعنى طريق.

ثم يأتي من هو أفضل تعليماً من الإنسان العادي، فيأخذ منحى أكثر اتجاهاً صوب العلمية- حتى وإن لم يصل إلى مستوى العلمية ويكون الحديث عن المنهج في هذا المقام عما يخص العلم . ثم يأتي الذي قطع شوطاً من التعليم فيبدأ يتكلم عن المنهج العلمي، أو منهج البحث العلمي. ومن هنا يكون الأمر أكثر تحديداً. وبذلك يكون الأمر قد انتقل من التعبير العادي إلى التحدث بلغة العلم.

فالباحث أو المفكر عندما يتحدث عن المنهج العلمي أو الطريقة العلمية فإنه يتحدث بطريقة أكثر تخصيصاً، فيقف عند هذه الكلمة يتكلم عن أكثر من منهج، ويختار المنهج أو الطريقة التي تناسب دراسة معينة دون غيرها.

دأب الكتاب والباحثون على تداول كلمة (منهج) في دراستهم، ومعالجتهم لكثير من الأمور البحثية، وكثيراً ما نجد كلمة (منهج) مقرونة بكلمة (بحث) وكأنهما مترادفتان. ودائماً يتناول كثير من

الباحثين كلمة (منهج) وكأنها مفتاح كل ما يتحدثون عنه ويبحثون من علوم. وهنا يكون الحديث عن عملية الاقتران بين المنهج والبحث في الدرجة الأولى.

كما أن الشيء المسلم به هو: أن المنهج مفتاح أي دراسة علمية، وبدون منهج لن يتقدم العلم ولن يكتب للباحث النجاح في العثور على بغيته، لأنه يتوه في طرق معقدة وخطوط متعارضة كأنها عش العنكبوت، وبذلك يضيع جهده ذهاباً وإياباً، ويعود في النهاية إلى حيث أتى، لا يجد في جعبته إلا المثل القائل (عاد بخفي حنين). ويؤكد (ديكارت) أن أول ما يجب على الباحث أو العالم عمله، هو إيجاد طريقة قويمة ترشده إلى المعرفة الحقيقية. ويرى: أنه لو توصل الفلاسفة إلى طريقة قويمة؛ لما تخبطوا من مباحثهم خبط عشواء، يقول: " الناس مسوقون في الاستطلاع برغبة عمياء، وهم إنما يوجهون أذهانهم في غالب الأمر، إلى طرق مجهولة لا تحقيقاً لأمل صائب، بل لكي يجربوا إذا كان ما يبحثون عنه حقاً. مثلهم في ذلك مثل رجل استولت عليه رغبة جنونية في أن يكشف كنزاً ما ، فتراه لذلك يقضي وقته متجولاً منقباً في كل مكان، ليرى هل ترك أحد السائحين أو العابرين كنزاً هناك[1]."

---

(١) ديكارت ،رينيه ،مقالة الطريقة لحسن قيادة الحسن وللبحث عن الحقيقة ،بيروت: ترجمة وتعليق جميل صليبا، (١٩٧٠م)، ص ٢١.

ولعله خير، لأي باحث، أن يريح نفسه من البحث عن الحقيقة، إذا لم تكن بين يديه طريقة محددة أو منهج يرشده للوصول إليها. ((إن الدراسات التي تسير من غير ترتيب ولا نظام .. تحجب أنوار الفطرة وتطمس عيون الذهن ومن اعتاد أن يسير هكذا في ظلام، ضعف بصره ضعفاً يصبح من العسير عليه أن يتحمل الضوء الساطع. فأول شيء يجب على الفيلسوف أن يقوم به هو البحث عن طريقه قويمة، ثم الأخذ بهذه الطريقة في النظر والعمل. وهذه الطريقة هي، قواعد مؤكدة بسيطة، إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة، كان في مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ واستطاع دون أن يستنفد قواه في جهود ضائعة أن يصل بذهنه إلى اليقين في جميع ما يستطيع معرفته[٢].)) ثم إنه يؤكد على عدم التسليم بصحة شيء ما لم نكن علي يقين من صحته، وهذا يتطلب أمرين: الأول لابد من التجرد من الأحكام السابقة والآخر أن ينسجم هذا الشيء مع العقل. لذلك نؤكد أن المنهج والبحث العلمي مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباط الروح بالجسد. ولكن لن يكون أحدهما هو الآخر ولا بديلاً عنه.

فالمنهج ما هو إلا الطريق المحدد سلفاً الذي يلتزم به الباحث من أجل إجراء دراسته أو عمله البحثي. أما البحث فهو العملية أو النشاط الذي يقوم به الباحث ملتزماً بهذا الطريق المحدد مسبقاً، من أجل الوصول إلى نتائج محدد أو معينة هي الهدف الذي يسعى إلى الوصول إليه.

---

(٢) ديكارت ، مقالة الطريقة، ص ٢١.

وأخيراً هذه الدراسة هي دراسة نظرية نأمل أن نلقي الضوء من خلالها على المنهج العلمي والبحث العلمي، من أجل التعريف بهما ومحاولة التفريق بينهما على أساس علمي.

الهدف :

كثر الخلط بين مفهوم المنهج والبحث وبين المنهج والطريقة، وبين كلمة منهج بصفة عامة، والمنهج في البحوث العلمية. وهنا سيناقش الباحث ذلك من أجل توضيح هذه المفاهيم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى سيتناول مفهوم المنهج وماذا يعني للباحث الذي يكرس وقته وجهده للبحث والدراسة، ثم ماذا يعني للقارئ المتخصص الذي يطمح إلى المعرفة، ويمحصها، ويحاول أن يتأكد في مدى صدق ما وصل إلى يده من نتائج دراسات قام بها آخرون. أهي فعلاً علوم يمكن أن يركن إليها القارئ ويعتمد على نتائجها، أم أنها كلام ليس له ما يسنده من الناحية المنهجية.

الأهمية:

تأتي أهمية هذا البحث في أنه محاولة لجلاء بعض الغموض الذي يكتنف بعض المفاهيم الخاصة بالمنهج، والتي قد تتداخل بعض معانيها مع بعض، مما قد يحدث التباساً للقارئ والباحث على حد سواء. كما يأمل محرر هذا البحث توضيح تلك المفاهيم يكون قد أضاف إلى ما كتب في هذا الموضوع ما يساعد الباحثين والدارسين على التغلب على مثل هذا الالتباس.

المعرفة

يختلف إنسان الماضي اختلافاً كلياً في ما يتعلق بمعرفته وفكره وطريقة حياته عن إنسان اليوم. فإنسان الماضي أقرب ما يكون إلى إنسان توجهه الغرائز إلى حد كبير. ولكن إضافة إلى ذلك قد منحه الله ملكة التعلم والتراكم المعرفي، وأكبر مثال على ذلك، قصة هابيل وقابيل وكيف تعلم من الغراب كيف يواري أخيه كما ذكر القرآن الكريم. بعد ذلك أخذ منذ وجوده على البسيطة بتنمية معارفه بما ميزه الله به من قدرة معرفية. وكذلك القدرة على بناء المعرفة بشكل تراكمي. فأخذ يضيف، أثناء مسيرة حياته ، إلى جعبته المعرفة تلو الأخرى، حتى وصل إلى ما وصل إليه في هذا العصر. ولو قدر الله لأحد أموات القرن الماضي أن يبعث اليوم، لصعق من شدة التغير الذي أصاب البشر. كل ذلك بفضل القدرة على التراكم المعرفي الذي يميز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى. فالإنسان منذ وجوده على البسيطة أخذ ينتقل من البسيط إلى المعقد، إلى الأكثر تعقيداً أثناء مراحل حياته.لا أحد ينكر أنه كان هناك مد وجزر في تاريخ الإنسان الطويل، ولكن لو لم يكن هناك تراكم معرفي، لما وصل الإنسان إلى ما وصل إليه من معرفة حتى الآن.

أنواع المعرفة:

كلمة معرفة على إطلاقها كلمة عامة، تشتمل على معنى فضفاض إذا جاز التعبير. وتتدرج من معرفة الإنسان لاسمه، إلى معرفة

زراعة قلب بشري، على سبيل المثال . وما بين هاتين الكلمتين مساحة كبيرة متدرجة. أي التدرج من أبسط ما يمكن إلى أعقد ما يمكن، على الأقل في عصرنا هذا. وفي هذا المقام نناقش المعرفة على ثلاث مستويات:-

١- المعرفة الحسية أو العادية، ويكتسبها الإنسان بالتجربة، وتعتمد على خبرة الإنسان العادي البسيط، وهي الخبرات اليومية العادية لكل إنسان، وما يمر عليه من معارف أثناء حياته. وتلك الخبرات التي اكتسبها عن طريق خبرته بالأشياء. وهي معرفة توجد عند الإنسان العادي والمتعلم على حد سواء. ولكن هذه المعرفة لا تخضع لأي نوع من أنواع البحث والاستقصاء الذي يعتمد على المنهج العلمي. أي أن الإنسان يعرف الكثير أثناء مسيرة حياته. ويعرف أين ذهب هذا الصباح، وما أنجزه من عمل، وكيف أنجزه، ويعرف يتعامل مع الآخرين وهكذا.

٢- المعرفة الفلسفية: وهي مرحلة متقدمة من مراحل التفكير العلمي، مقارنة بالمعرفة الحسية. تعتمد على التفكير الفلسفي المنطقي، دون إخضاع أي من ذلك للتجريب العلمي. كما أنها تعتمد على التأمل العقلي، واستنباط المعارف عن طريق التأملات الفلسفية. ويشتهر بذلك الفلاسفة الذين يتأملون فيما حولهم ويحاولون الربط بين الظواهر؛ معتمدين على الاستنباط والمنطق دون إخضاع أي من هذه التأملات للتجريب والتمحيص المدعوم بالدراسات الأمبيريقية.

٣- المعرفة العلمية: وهي أدق درجات المعرفة إذ تعتمد على التخطيط الفكري والموضوعي، الذي لا يجعل للأهواء والميول الشخصية أي فرصة للتدخل في النتائج التي يعمل الباحث من أجل الوصول إليها. ذلك لأن الباحث أجرى دراسته وفقاً لمنهج البحث العلمي. وهذا النوع من المعرفة هو الذي يقود إلى إثراء المعرفة العلمية، وينتقل بالعقل البشري من طور إلى طور أفضل من المعرفة العلمية[٣]. يرى الكثير من العلماء والمفكرين أن المعرفة العلمية هي اعتقاد صادق له من الشواهد ما يضمن مصداقيته. يقول الحصادي: إنه لابد أن يكون لدى العارف اعتقاد، وأن يكون هذا الاعتقاد صادقاً، ثم أن يكون لدى هذا العارف القدرة والإمكانية العلمية لإثبات ما يعرفه[٤].

وهذا يتفق مع طبيعة البشر. فعندما يدعي شخص معرفة شيء ما، فإنه يعتقد بتلك المعرفة، ثم إنه، بالمقابل، لابد أن يكون لدى هذا الشخص مؤهلات التصديق من وجهة نظر الآخرين- مثل الأب، والمدرس على سبيل المثال- ثم يكون لدية الوسيلة التي تثبت صدق اعتقاده. ولعل ذلك يتفق مع ما ذكره العلامة ابن خلدون؛ حيث تحدث

---

(٣) عبد الباسط، حسن.، أصول البحث الاجتماعي، القاهرة: مكتبة وهبة، (١٩٨٥م)، ص ٢٠-٣٠؛ عمر، محمد، البحث العلمي: مناهجه وتقنياته، جدة: مطبعة خالد الطرابيشي (١٣٩٥هـ) ص ٣٦-٤١؛ أحمد غريب، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، (١٩٨٣م)، ص ٥٣-٣٦.

(٤) الحصادي، نجيب، نهج المنهج، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (١٩٩١م)، ص ١٥-١٧.

عن إمكانية أن تكون الظاهرة التي يتكلم عنها الباحث متسقة مع العقل والمنطق.

مصادر المعرفة:

بعد مناقشة أنواع المعارف يجدر بنا مناقشة مصادر تلك المعارف.ويجب أن لا نخلط بين أنواع المعارف ومصادرها، لما بينها من تشابه. وبذلك سنتطرق لمصادر المعارف التي يكتسبها الإنسان، بصرف النظر عن التطرق والإمعان في مستواها العلمي. وهذه المصادر هي:-

١- الخبرة الشخصية: فالخبرة الشخصية من أهم مصادر المعرفة؛ حيث أن الخبرات التي تكتسب عن طريق الممارسة من أهم مصادر المعرفة . فالناس يلجئون إلى خبراتهم الشخصية للتغلب على ما يصادفهم من مشكلات أو عقبات من أجل حلها. وبذلك تتراكم خبرات الناس ومن ثم يستفيدون من الحسن ويستزيدون منه ويبتعدون عن السيئ. ولكن هذه الخبرات لا تعدو أن تكون خبرات عادية لا تخضع لمنهج أو محك علمي. بل يستمرئ الشخص العمل أو السير في اتجاه ما، دون إخضاعه لمحك خارجي. ومن ثم يعتاد على هذا الاتجاه دون الاعتماد على منهج البحث العلمي. مثل اعتقاد شخص في شيء معين، ومن ثم يستمر على أن هذا يجلب له النجاح أو نحو ذلك، نظراً لخبراته السابقة[٥] .

---

(٥) الحصادي، نهج، ص ٤٣-٤٥.

ونحن بصدد الحديث عن الخبرات العلمية وغير العلمية نذكر المثال التالي (في بلد من البلدان كانت بعض الطيور تأتي في موسم هطول الأمطار ويأتي معها مرض معروف لأهل المنطقة. فأصبحوا ينظرون إلى هذه الطيور نظرة شؤم على أنها هي التي تجلب لهم الأمراض وفي الحقيقة أنه في مواسم الأمطار تكثر المستنقعات، مما يؤدي إلى انتشار الأمراض بواسطة البعوض وليس بواسطة الطيور التي تظهر في الموسم نفسه. ولكن لا يمكن القول أن جميع الخبرات الشخصية لا يعتد بها، بل بالعكس فإن البعض منها وبعد اختبارها اختباراً موضوعياً يمكن الاعتداد بها والاستفادة منها في مناشط الحياة المختلفة. فالخبرات الشخصية تعد مصدراً يعتد به في كثير من الأحوال، وخاصة إذا كانت خبرة باحث لديه من المعلومات ما يمكن أن يكون منطلقاً للفروض.

٢- السلطة : فالسلطة تعد ثاني مصادر المعرفة . فالفرد إذا كانت معرفته ناقصة فإنه يأخذ ممن لديه المعرفة. فمثلاً الابن يأخذ عن أبيه والطالب من معلمه. وبذلك فإن الأب بالنسبة للطفل والمعلم بالنسبة للطالب والفقيه بالنسبة لطالب العلم يعدون مصادر معرفية.

٣- المعرفة العلمية: إن النشاطات البشرية النظرية، كالعلم والفلسفة تعد من مصادر المعرفة، شريطة أن يكون الوصول إلى هذه المعارف بالطرق العلمية. وبذلك يكون العلم مصدراً من مصادر المعرفة، عندما

نستعين بنظرياته في فهم العالم من حولنا، بشرط أن يخضع ذلك لمنهج البحث العلمي[٦].

المعرفة والعلم

لاحظنا آنفاً أن هناك معرفة عامة، ومعرفة علمية، تستند إلى المنهج العلمي. وبذلك عندما نقول المعرفة العلمية، فإننا نتحدث عن أكبر درجات المعرفة. فالمعرفة ضدها الإنكار، والعلم ضده الجهل. ويطلق اصطلاح (علم) على نتاجات منظمة مترابطة ومتسلسلة في وحدة واحدة وبذلك أصبح العلم أكثر تخصيصاً من المعرفة. ولكن المعرفة، بصفة عامة، تشمل مجالات عديدة منها العلم والمفاهيم والحقائق والمبادئ والقوانين والمذاهب والنظريات والمدركات الحسية وغيرها وأصبحت المعرفة تشمل نتاجات العلم بالإضافة إلى غير ذلك من المعرفة العامة والمعرفة الفلسفية[٧].

كما أنه يتم الحديث عن العلم من منطلق أنه محدد، ويعرف الموضوع به، فنقول علم الكيمياء وعلم الفيزياء وعلم الرياضيات وعلم الحديث وهكذا. ولا يقال معرفة الكيمياء أو معرفة الفيزياء. ويرى عبد الباسط حسن، أن مفهوم المعرفة ليس مرادفاً لمفهوم العلم. بل إن المعرفة تشمل العلم؛ لأن كلمة (معرفة) تشمل؛ معارف علمية، ومعارف غير علمية. كما أنه يرى أن كل علم معرفة، ولكن ليس كل معرفة

---

(٦) الحصادي، نهج، ص ٤٩.

(٧) الصفدي، أحمد، تصنيف المعرفة والعلوم، الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية، (١٩٩١م)، ص ٥٧-٥٨.

علماً. أما إذا تم التوصل إلى المعرفة بإتباع قواعد المنهج العلمي، فإن المعرفة تصبح علمية. حيث يعرف العلم بأنه "المعرفة المصنفة التي يتم الوصول إليها بإتباع قواعد المنهج العلمي الصحيح، مصاغة في قوانين عامة للظواهر الفردية المتفرقة"[٨].

ويمكن تصنيف المعارف حسب المنهج الذي يتخذه من يبحث عن المعرفة. وهذا بدوره يتعلق بالغاية من البحث. فمثلاً ينهج الفلاسفة منهج التأمل الصرف؛ لأن الغاية التي ينشدونها لا يمكن الوصول إليها بمنهج خلاف التأمل. أما العلوم الإمبيريقية؛ فإنها تقوم على أساس الفروض العلمية التي يتم فحصها، والتحقق منها، وذلك بمقابلتها بوقائع محددة. كما تهدف إلى الكشف عن الظواهر التي يمكن ملاحظتها وتصنيفها أو تفسيرها والتنبؤ بها. وبذلك تصنف المعارف إلى معارف إمبيريقية ومعارف غير أمبيريقية[٩]. ويفرد الحصادي العلم بالتعريف الآتي " العلم نشاط ذهني منظم يهدف بإتباع نهج ملائم إلى الوصول إلى نظريات مدلل عليها وقادرة على تعليل ما يلاحظه البشر من ظواهر والتنبؤ بما يستتر عنهم منها"[١٠]. ومن هنا يأتي تأكيد المنهج كما سبقت الإشارة إليه بوصفه محكاً لتمييز، ما هو علم عما هو غير علم.

---

(٨) عبد الباسط، أصول البحث، ص ١٨-١٩.

(٩) الحصادي، نهج، ص ٦٠-٦١.

(١٠) الحصادي، نهج، ص ٧٦.

أما المعرفة ؛ فيرى الحصادي: أنها حتى وإن كانت أشمل من العلم، وأن شروطها ضرورية لقيامه، إلا أنها غير كافية لقيام العلم. ويؤكد على الدور الفاعل لكل من هدف العلم ومنهجه، في عملية نتائج النشاط العلمي".. هكذا يتميز العلم عن سائر النشاطات البشرية بمنهجه المتفرد وأغراضه الخاصة، وهكذا يعد تطبيق قواعد المنهج العلمي، من أجل تحقيق مقاصد بعينها، معياراً حاسماً يمكن باللجوء إليه التمييز بين العلم واللاعلم[١١].

خصائص التفكير العلمي

يتميز التفكير العلمي بخصائص هي: (١) لابد أن يتميز التفكير العلمي بدقة مفاهيمه، بحيث تكون واضحة الصياغة، خالية من أي غموض أو لبس. (٢) لابد أن يسعى التفكير العلمي إلى الوصول إلى تعميم ما يتوصل إليه من نتائج، لأن هدف العلم هو الوصول إلى التعميم المبنى على إمكانية تفسير الظواهر والقدرة على التنبؤ.

٣- إمكانية الاختبار الإمبيريقي، أي لابد أن يخضع العلم للاختبار والتحميص الإمبيريقي، لأن العلم يخص الجميع، ولابد من خضوعه لقياس منطقي، بموجبه يتأكد الجميع من صحته. فلا يعتد بالخبرات الشخصية ما لم يتم إخضاعها للاختبار الإمبيريقي. يجب أن يكون العلم تراكمي، بحيث أن ما يتم التوصل إليه في لحظة أو وقت من الأوقات يكون إضافة إلى ما قبله وهكذا. أن الموضوعية من أهم

(١١) الحصادي، نهج، ص ١٩-٢٠.

خصائص التفكير العلمي. ومن أجل الموضوعية لابد أن يتجرد الباحث من أي أحكام مسبقة. وأن لا يغفل العالم أو الباحث ما تدلل القرائن على صحته بسبب أنه يتعارض مع معتقداته الدينية أو الأخلاقية أو مصالحه الشخصية[١٢].

المنهج العلمي والبحث العلمي

لايذكر المنهج العلمي حتى يتبادر إلى الذهن البحث العلمي، كما أنه لايذكر البحث العلمي حتى يتبادر إلى الذهن المنهج العلمي. حيث يبدوان وكأنهما مترادفان وهذا التلازم بينهما أدى إلى بعض الخلط في مفهوميهما عند كثير من الباحثين. ورغم تلازم العبارتين، إلا أنه لايمكن بأي حال من الأحوال أن نعدهما مترادفتين، نظراً إلى المدلول الذي يدل عليه كل منهما. ولكن كثيراً من الباحثين يخلط بينهما بشكل متكرر، بحيث يتحدث أحدهم عن المنهج العلمي وكأنه يتحدث عن البحث العلمي. وسوف نناقش ذلك الموضوع عسى ولعل، أن نتمكن من توضيح ماذا يعنى كل من هذين المفهومين.

المنهج العلمي

ساق العلماء بعض التعاريف التي تناقش منهج البحث العلمي. وكل يأخذها من زاوية قد تتفق أو تختلف عن المنطلق الذي يتناولها به الآخرون عندما يناقشون هذا الموضوع. كما أن البعض قد تتطابق وجهة نظره كلياً أو جزئياً مع ما يطرحه الآخرون في تعريف هذا

---

(١٢) الحصادي، نهج، ص ٩٧- ١٠٣.

المفهوم. ويمكن مناقشة بعض التعاريف التي تتناول كلمة (منهج) وفقاً لقاموس وبستر Webster. حيث يعرف المنهج على أساس كلمة Methodology على ثلاث مستويات الأول: هو التفريق بين كلمة Method وتعني منهج أو طريقة وكلمة Logy وتعني علم. وبذلك يكون التعريف لكلمة Methodology هو علم المنهج أو علم الطريقة. ويقصد بها هنا دراسة المنهج، أو الطريقة بوصفها علماً بذاته. ولعل ذلك يدخل في الدراسة الفلسفية لعلم المنهج.

الثاني: يؤكد على كلمة منهج Methodology بأنها مجموعة من الطرق، والإجراءات، ومفاهيم العمل والقواعد والافتراضات التي تستخدم في الفن أو العلم أو النظام.

الثالث: وأخيراً يعرف قاموس وبستر المنهج بأنه فرع من المنطق، يحلل المبادئ أو الإجراءات التي ترشد إلى الوصول إلى المعرفة في حقل محدد من حقول هذه المعرفة.

والمنهج: هو الطريق الواضح، الذي يؤدي إلى غايات أو مقاصد بعينها. وهو أيضاً السبيل الواضح الذي يسلكه كل من يروم إنجاز النشاطات العلمية[١٣]. كما يعرف العبد المنهج بأنه: "الطريق الواضح في أمر ما، من علم أو عمل. وأن المنهج ليس إلا خطوات منظمة يتبعها الباحث في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراساتها، إلى أن يصل إلى نتيجة معينة. وبهذا يكون في مأمن من أن يحسب صواباً ما هو في الواقع خطأ أو

---

(١٣) الحصادي، نهج، ص ١١٤.

العكس"[١٤] . كما يعرف بدوي المنهج بأنه: "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته؛حتى يصل إلى نتيجة معلومة[١٥] ، فهو بذلك يتحدث عن برنامج يعد مسبقاً من أجل الوصول إلى ما يراد الوصول إليه من معرفة. وفيما يلي عدد من التعاريف التي ساقها بعض العلماء حول تعريف المنهج وهي:

أ- نسق من القواعد والمبادئ والإجراءات التي توجه البحث العلمي[١٦].

ب- نسق من الإجراءات التي بواسطتها تتطور المعرفة[١٧].

ج- نسق من القواعد الواضحة والإجراءات التي يستند عليها الباحث في سبيل الوصول إلى نتائج علمية[١٨].

د- نسق من القواعد الواضحة والإجراءات التي يعتمد عليها البحث وتقوم بموجبها المعرفة[١٩].

---

(١٤)العبد، عبد اللطيف، مناهج البحث العلمي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، (١٩٧٧م)، ص ٠٧

(١٥) بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، الكويت: وكالة المطبوعات، (١٩٧٧م)، ص ٠٥

(١٦) **Robertson, I., Sociology, New York: Worth Publishers inc (1981) P. 29**

(١٧) **Poenoe, D., Sociology, New Jersey: Prink ice hall inc (1983) P. 28**

(١٨) الهمالي ، عبد الله ، أسلوب البحث الاجتماعي وتقنياته ، بنغازي منشورات جامعة قاريونس، (١٩٨٨م)، ص ١٨ .

٥- المنهج هو الطريق الذي يوصل الباحث إلى الحقيقة أو مايراه كذلك، ولابد للباحث أن يحدد مساره والطريق الذي سوف يسلكه من أجل الوصول إلى النتائج التي يتوخى أو يرغب الوصول إليها[٢٠].

لذلك فإن منهج البحث العلمي نسق من الإجراءات والمبادئ التي توضح وتحدد الخطوات التي يجب على كل باحث عن المعرفة العلمية إتباعها، من أجل الوصول إلى هدفه المعرفي الذي يروم الوصول إليه. وهذا التعريف لا يخرج عن التعاريف التي ساقها العلماء المتخصصين في العلوم الاجتماعية والعلوم بصفة عامة. وبذلك فإن المنهج: لايعدو أن يكون تنظيماً إجرائياً لابد للباحث عن المعرفة العلمية من إتباعه؛ لكي يصل إلى النتائج التي يريد البحث عنها. ولكن في العلوم الاجتماعية، قد لايصل الأمر بالباحث إلى نتائج تقود إلى نظرية بالضرورة؛ لأنه قد يصل إلى عكس النظرية وبذلك فإن عزاء الباحث أنه قد التزم بإتباع المنهج العلمي في البحث، سواء توصل

---

(١٩) Nachmias, D., Nachmigs CH **Research in the Social Sciences**, New York Marfins Press (1981), p. 15

(٢٠)معتوق فردريك، منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب، بيروت : المؤسسة الجامعية للنشر والدراسات والتوزيع، (١٩٨٥م)، ص ٠٥

إلى نظرية أو ضد النظرية. إن اختيار منهج إنما هو إلا تنظيم نموذج دقيق يمكن استعماله في كل مرة[٢١].

وعلى شاكلة تعريف قاموس وبستر لكلمة Methodology بأنه علم المنهج التي تم التطرق إليها فإن **McNeil** [٢٢]. يعرف المنهج في هذا السياق بأنه: "الدراسة النظرية للأساس المنطقي لإجراء البحث، وجمع المعلومات ثم تفسير النتائج وتحليلها".

ولعل هذا التعريف يتسق، أيضاً، مع تعريف أبو طاحون الذي قال فيه "يشير منهج البحث إلى الدراسة المنظمة والمنطقية للقواعد التي يسترشد بها الباحث في القيام بالبحث العلمي، وتتضمن بذلك الدراسة والتقويم للطرق والوسائل والأدوات والإجراءات الخاصة بالبحث العلمي، وما قد يؤثر على القيام به، كما يتضمن ذلك دراسة الأسس العامة لإثبات الفروض أو النظريات"[٢٣]. هنا تم تعريف منهج البحث على أساس فلسفي أكثر منه منهج إجرائي، أو طريق فقط يسلكه الباحث من أجل الوصول إلى المعرفة.

أما معتوق فيرى: أن العمليات التي يقوم عليها المنهج العلمي بأنها عمليات ذهنية منطقية وليست فلسفية، حيث أنه يرى أن المنهج العلمي

---

(٢١) رزق الله ، نهار ، دراسات منهجية في تحليل النصوص ، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (١٩٨٤م) ص ١٣.

(٢٢) McNeill, P., **Research Methods**, London, (1990) p. 14

(٢٣) أبو طاحون ، عدلي ، مناهج إجراءات البحث ، الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث (١٩٩م)، ص٧.

يأخذ موقفاً علمياً ينسجم مع الواقع المعاش للبشر، لأن المنهج ليس إلا مفهوماً علمياً محدداً وهذه من أهم خصوصيات المنهج في العلوم الاجتماعية. ويعرف المنهج بأنه (مجموعة عمليات ذهنية، ترتبط بأسلوب معين، وتهدف إلى كشف أحد وجوه المعرفة الاجتماعية، فهو في منتصف الطريق بين الموقف الفكري والواقع المعاش، يأخذ من الاثنين ليعطي الاثنين يضبط المعرفة ولكنه ليس معرفة بحد ذاته[٢٤].

ولعل ذلك قد نحى بالمنهج عن الاتجاه الفلسفي الذي يذهب بالمنهج إلى أبعد من كونه قالباً أو جادة تتبع من أجل الوصول إلى المعرفة. ويغلق الطريق أمام الذين يرون أن المنهج علم بذاته من منطلق تطبيق نظرية المعرفة عليه، شأنه شأن العلوم الأخرى. أما ديكارت، فيقسم القضايا التي يريد دراستها إلى عدد من الأجزاء، لكي يستطيع حلها على أحسن وجه. وهذا دليل على إتباعه طريقة تبدأ من البسيط إلى المعقد، حتى يكمل الموضوع الذي يرغب دراسته. ويسير وفقاً لخطوات محددة في البحث ويعلق (صليباً) على هذا بقوله "مثال ذلك إذا طلب منا أن نرسم من نقطة خطاً مماساً لمنحنى معلوم، وجب علينا أولاً أن نفهم المطلوب، ولا يمكننا فهمه على حقيقته إلا إذا قسمناه، وتقسيمه إنما هو البحث عن العوامل أو الشروط المحددة له. ويتحدث ديكارت عن طريقته في البحث عن المعرفة: (أن أرتب أفكاري، فأبدأ

---

(٢٤) معتوق، منهجية العلوم الاجتماعية، ص ١١.

(٢٥) ديكارت، مقالة الطريقة، ص ٣١.

بأبسط الأمور وأيسرها معرفة، وأتدرج في الصعود شيئاً فشيئاً، حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيباً[٢٦]. فهو هنا يقر بضرورة الطريقة، لكي يصل الباحث إلى المعرفة. ويؤكد أنه لابد من التدرج في خطوات البحث من الأسهل فهماً إلى الأكثر صعوبة، حتى يتسنى له الوصول إلى المعرفة. أي أنه يحاول الكشف عن منهج يسير تفكيره ويقوده، من أجل الوصول إلى الغاية المثلى وهي المعرفة.

لاشك أن المنهج هو وسيلة أو تقنية من أجل الوصول إلى نتائج علمية يعتد بها في مجال العلم. ولذلك فإن ابتكار وسيلة منهجية أفضل، أو تقنية أفضل سوف يكون مفيداً في تطوير العلم. وأكبر دليل على ذلك على سبيل المثال الحاسوب (الكمبيوتر) الذي يعد إضافة جديدة في مجال البحث العلمي.

البحث العلمي

إن للبحث معنيين: إذا جاز التعبير. فهناك كلمة بحث على إطلاقها، ويقصد بها أي عملية بحث يقوم بها من يريد أن يبحث عن شيء ما، وهنا يقف الأمر عند هذا الحد دون تفسير أو تأويل أو تقويم.

أما البحث العلمي. فهو: ذلك النشاط العقلي والعملي الموجه نحو الوصول إلى إجابة، أو إجابات محددة عن سؤال، أو أسئلة محددة؛ وفقاً لطريقة علمية حددها مسبقاً باحث متخصص، بحيث لايعتبر عمله بعد إتمامه علمياً إلا إذا توصل إلى نتائج علمية يعتد بها. يقول

---

(٢٦) ديكارت، مقالة الطريقة، ص ٣١.

معتوق "أن البحث الاجتماعي عمل علمي إنساني يهدف إلى تكوين معرفة واقعية عن الظاهرة الاجتماعية"[٢٧] . ويؤكد على أن الأفكار التي ينطلق منها البحث الاجتماعي كالأساس بالنسبة للبناء، وأي خلل في هذه الأفكار يؤدي إلى انهيار التحليل كما في العمارة[٢٨] .

إن هدف البحث العلمي هو التوصل إلى قوانين سببية، تمكن الباحث من الشرح والتنبؤ بالظواهر العلمية. ولكي يصل الباحث إلى مثل هذه القوانين، لابد أن يستند إلى حقائق ومعلومات موثقة. ولكي يحصل على معلومات وحقائق صحيحة؛ لابد أن يتبع قواعد واضحة من أجل تحديد صحة وحقيقة أي معلومات يحصل عليها[٢٩]. كما أن النشاط البحثي لا يطلق كيفما اتفق، ولكن يجب أن تكون عملية البحث أو النشاط البحثي متسقة ومترابطة الأفكار؛ بحيث يتوصل الباحث إلى نتائج إيجابية محددة بعد تظافر الجهود الفكرية والعملية من أجل تحقيق مثل هذه النتائج.

لاشك أن هناك خلطاً بين المنهج والبحث العلمي كما سبقت الإشارة، ويجب التوضيح بأن المنهج العلمي: هو فكرة محددة خطواتها مسبقاً، وتشتمل على قواعد إجرائية واضحة ومحددة على الباحث تطبيقها في عمله البحثي، من أجل الوصول إلى المعرفة. بينما البحث

---

(٢٧) معتوق، منهجية العلوم الاجتماعية، ص ٩٣.

(٢٨) معتوق، منهجية العلوم الاجتماعية، ص ٩٣.

(٢٩) Brenner, M., Method and Social Live., London: Acalemic Press, (1981).P.I

العلمي ممارسة عملية لقواعد المنهج في سبيل الوصول إلى حقائق ونتائج علمية.

إن المنهج أسلوب منطقي لكل عملية تحليل ذات طابع علمي. فهو أسلوب يجمع عدة عمليات تتلاقى عند بلوغ هدف واحد. وهذه العمليات تتلاقى في شكل مركب في إطار المنهج، بحيث تقوم كل عملية بدور جزئي يخدم بلوغ الهدف النهائي[٣٠].

أما البحث العلمي؛ فيعرفه حسن: بأنه "الدراسة العلمية المنظمة لظاهرة معينة باستخدام المنهج العلمي، للوصول إلى حقائق يمكن توصيلها والتحقق من صحتها "[٣١]. لعله يقصد بكلمة توصيلها التي أوردها في تعريفه هذا تأصيلها.

ويرى أيضاً أن للبحث عناصر هي: ١) الموضوع. ٢) الهدف. ٣) المنهج[٣٢]. يعني بالموضوع أن: هناك ظاهرة، أو مسألة، أو مشكلة تدفع الباحث للبحث بها. أما من ناحية الهدف فكل بحث لابد أن يسير في اتجاه تحقيق هدف محدد. ثم إن العمل من أجل الوصول إلى الهدف؛ لابد أن يكون وفقاً لمنهج علمي يوجه سير البحث في هذا الاتجاه.

فالمنهج سلسلة من الخطوات تبدأ من نقطة محددة سلفاً وتنتهي عند نقطة محددة، يتعبها الباحث حتى يتمم بحثه. فما هو إلا مجموعة من

---

(٣٠) معتوق، المرجع السابق ، ص ٦

(٣١) عبد الباسط، أصول البحث ، ص ١٢٢.

(٣٢) عبد الباسط، أصول البحث ، ص ١٢٤.

الإجراءات التي يختطها الباحث لترشده إلى الوصول إلى الهدف العلمي الذي يصبو إلى الوصول إليه.

أما البحث فهو: نشاط وممارسة عملية فكرية؛ تمكن الباحث من الوصول إلى تحقيق أهدافه العلمية والنتائج التي يصبو إليها من خلال تطبيق المنهج العلمي .

ونجد بعض الباحثين يطلق نوع الدراسة التي يقوم بها على طريقة البحث، على سبيل المثال يتحدث الباحث عن المنهج الوصفي وفي الواقع هو يقصد المنهج المسحي الذي بموجبه يقوم بالدراسة الوصفية. فكلمة وصفي تنطبق على نوع البحث أو الدراسة التي يجريها الباحث، وليس على منهج البحث. وكذلك دراسة الحالة يتم الحديث عنها؛ كما لو كانت منهجاً ويقصد به بعض الباحثين المنهج الحقلي أو الملاحظة، ولكن دراسة الحالة ليست منهجاً وإنما نوع بحث، حيث يقوم الباحث بدراسة حالة مجتمع معين عن طريق ملاحظة وتدوين مايلاحظه. وقد يكون ذلك بتتبع حالة مجتمع، أو شخصية معينة باستخدام المنهج التاريخي أو الوثائقي وهكذا. زبدة الحديث: يجب التفريق بين كلمة بحث، أو دراسة كنشاط أو عملية إجرائية، فمثلاً نقول يقوم فلان بدراسة موضوع كذا أو بحث كذا، وبين البحث أو الدراسة كنتيجة، فنقول هذه الدراسة المقدمة إلى ندوة كذا أو هذا بحث قدم في مؤتمر كذا وهكذا.

وأخيراً، يجب أن نؤكد أن البحث في علم الاجتماع هو علم وفن، وشأنه شأن بعض العلوم الاجتماعية الأخرى. فهو علم، لأنه لابد

للباحث أن يجري بحثه وفقاً لقواعد المنهج العلمي وخطواته، ومن ناحية أخرى فهو فن؛ لأن تطبيق قواعد المنهج العلمي فقط لا يكفي. وإنما على الباحث أن يتمتع بعقل خلاق في استنباط الأفكار ذات القيمة العلمية وتفسيرها. كما يجب أن يكون على إلمام جيد بالظواهر التي يدرسها والظواهر ذات العلاقة، ويخضعها للقياس والملاحظة الشخصية. فلا يقف عند تطبيق المنهج العلمي على القواعد الجامدة ذاتها فقط؛ لأنه قد يطبق خطوات المنهج العلمي ويتوصل إلى نتائج غير صحيحة؛ لأن مادة الدراسة في العلوم الاجتماعية هي السلوك الإنساني الذي يصعب السيطرة عليه وتقنينه. فقد يدلي المبحوث بمعلومات غير صحيحة، وقد يتصرف بشكل تمثيلي - كما في حالة الملاحظة - وإذا لم يكن الباحث فطناً، ولديه دراية بكثير من الأمور، فإنه سوف يقع في شرك التحيز دون أن يعلم، وسوف يؤثر ذلك في نتائج دراسته، لذا يجب على الباحث أن يستخدم خلفيته العلمية، وبراعته، وخبراته، والتصرف بذكاء مع المادة التي يدرسها؛ لكي يعدل في أسلوب تعامله ويتجنب ما يستطيع من المؤثرات التي قد تؤثر في دراسته.

المنهج والطريقة

إن كلمتي منهج وطريقة توحيان، عند سماعهما، بأن هناك فرقاً شاسعاً بينهما في المعنى. ولكن عند مراجعة ما كتب عن هاتين الكلمتين لا نجد تعريفاً مانعاً جامعاً يحدد معنى كل منهما. وكثير ما يستند الباحثون على ما يكتب عنهما في الكتب الأجنبية، وخاصة ما يكتب باللغة الإنجليزية. ويعمد الباحثون إلى ترجمة كلمة Method

بأنها تعنى الطريقة وكلمة Methodology بأنها تعنى المنهج. وهنا نناقش بعض الآراء التي تناولت هذا الموضوع. ففي الحين الذي يتحدث فيه الحصادي عن أنه ليس هناك إلا منهج واحد، وماعدا ذلك فهو هراء، نجده يقول: يمكن اعتبار المنهج علمياً، إذا مكن تطبيقه في الوصول إلى نظريات قادرة على تفسير الظواهر بشكل أفضل من تطبيق أي بديل آخر[٣٣]. أما بدوي، فيرى: "أن لكل علم من العلوم منهجاً يدرسه، ثم أن هناك منهجاً يدرس تلك المناهج ويقصد به علم المناهج. ولعله يقصد أن المناهج الفرعية التي يتحدث عنها لكل علم بأنها الطرق. أما المنهج الذي يدرس تلك المناهج والتي تخص كل علم على حده بأنه علم المنهج[٣٤] .

وهنا نحاول التفريق بين كلمة المنهج والطريقة على الوجه التالي:-

أولاً: يمكن أن يقال أن كلمة منهج في الأدبيات العربية تستعمل للتفخيم والتكبير، فيقال هذا منهج العالم فلان أو القائد فلان وهكذا؛ لأن كلمة طريقة لاتتسق في نطقها مع مكانة الشخص المتحدث عنه. لذا فقد اتخذت هذه الكلمة بدلاً عن كلمة طريقة، أو أن الأمر قد اتخذ من أنه، عند الحديث عن الطريقة، لايستطيع المتحدث أو الباحث أن يقول (طريقاً) مثلاً، وهي ترجمة لكلمة Methodological فيقول منهجياً لكي يكون النطق أسلم، وبذلك دأب الباحثون على استعمال كلمة منهج في هذا السياق على هذا المنوال.

---

(٣٣) الحصادي، نهج، ص ١٢١، ١١٦ .

(٣٤) بدوي، مناهج البحث، ص ٦-٧ .

ثانياً: كلمة طريقة Method وكلمة منهج Methodology استخدمتا بمعنيين مختلفين، حيث تستخدم طريقة Method على أنها الطريقة التي يضعها الباحث لكي يتبعها في إجراء دراسته. ويختار من الطرق ما يناسب كل دراسة، أي أن طبيعة الدراسة وموضوعها يفرضان على الباحث طريقة دون غيرها. مثل ذلك المسح الاجتماعي والملاحظة، والتجريب، وطريقة البحث في الوقائع أو الوثائق التاريخية وهكذا. ثم يأتي بعد ذلك كلمة Methodology ويقصد بها علم "الطريقة". وهنا ينصب على دراسة وتمحيص الطرق التي تتبع في إجراء الدراسات. ويأخذ اتجاهاً فلسفياً ويقصد به هنا علم الطرق، حيث إن هذه الكلمة لاتينية تتكون من مقطعين هما Method وتعني (طريقة) و logy وتعني (علم) ويقصد بهما معاً علم الطريقة. وهنا تتم مناقشة (علم الطريقة) بوصفه علماً فيما يعرف بعلم النظرية أو الابستمولوجيا.

ثالثاً: أما الوجه الثالث لهذا الاختلاف بين المنهج والطريقة فهو إثبات الاتفاق بينهما. فبالرجوع للأدبيات التي كتبت باللغة العربية، نجد الحديث عنهما بمعنى واحد وكأنهما وجهان لعملة واحدة. فالطريقة هي المنهج والمنهج هو الطريقة ولم يتم العثور على دليل يبين وجهة الاختلاف بين الكلمتين. لذا فإن كلمتي طريقة ومنهج، بمعنى واحد، وأما الاختلاف فإنه في اللفظ. كما أن كملة (منهج) تستخدم في اللفظ مثل كلمة (منهجياً) عندما تقع كلمة طريقة فلا يقال (طريقياً) وإنما يقال: منهجياً لأنها أخف على اللسان وهكذا. لذا فإن كلمتي منهج وطريقة مترادفتان ويقصد بهما معنى واحد.

منهج البحث وسيلة اتصال بين الباحث والقارئ

عندما نتحدث عن الطريقة أو منهج البحث بوصفه وسيلة اتصال، لابد أن نتحدث عن المرسل والمتلقي في هذه العملية. فالمرسل في هذا المقام هو الباحث الذي قد أجرى دراسة علمية اتبع في إنجازها خطوات طريقة البحث العلمي، حتى توصل إلى ماتوصل إليه من نتائج. وهو بذلك يعتقد أنه قد توصل إلى مالم يتوصل إليه غيره من الباحثين، أو أنه قد حسم الأمر في مسألة فيها خلاف بين الباحثين، وهكذا. كما أنه لابد أن يكون لدينا متلق؛ وهو القارئ؛ الذي يتكون من عقليات مختلفة، فيوجد القارئ العادي الذي قد يصدق أو لا يصدق ما يقرأ حسب ميوله أو مزاجه، أو ما قد يوحي إليه به أو يمليه عليه الغير. لأنه ليس مؤهلاً علمياً لتمحيص مايقع بصره عليه وهذا النوع من القراء غير مطالب بأكثر من ذلك. من ناحية أخرى يوجد القارئ المتخصص، الذي يستطيع التفريق بين العمل الجيد والعمل الرديء، وفقاً لقواعد المنهج العلمي، وإذا انتقد يكون نقده علمياً. ومن يقرأ من المتخصصين لمثل هذا الباحث أو الناقد قد يحكم لأحدهم وفقاً لقواعد المنهج العلمي. وهذه لغة يفهمها المتخصصون ويقدرونها.

إن طريقة البحث العلمي تعد وسيلة اتصال بين كل من الباحث والقارئ. كما أنها وسيلة لإثبات جودة الدراسة العلمية التي يجريها الباحث، أي أنها تعد الدمغة لعلمية الدراسة، ومدى استيفائها لشروط الطريقة العلمية في البحث.

لذا فإن المنهج أو الطريقة عقد يلتزم به الباحث من أجل إجراء الدراسة وفي الوقت نفسه يجعل القارئ على علم بالطريقة التي اتبعها، واستطاع أن يتوصل إلى النتائج التي قدمها له. كما أن الباحث عندما يحدد منهجه أو طريقة بحثه؛ عليه أن يلتزم بها حتى يكمل دراسته أو بحثه. وفي حالة وجود أمر طارئ أو عارض قد يعترض الباحث أثناء دراسته، عليه أن يتعامل معه وفقاً للمنهج الذي وضعه لنفسه قبل بداية الدراسة. وإذا لم يستطع أن يتغلب على ذلك، من خلال المنهج الذي استخدمه، فعليه إيضاح ماقام به من معالجة - خلافاً للطريقة التي وضعها مسبقاً- لهذه الحالة العارضة؛ لكي يطلع القارئ على ماقام به من معالجة لذلك؛ أهو صحيح ومنطقي أو لا؟ وهل ذلك أفضل علاج ممكن قدمه الباحث لمثل هذا العارض أم لا؟.

إن طريقة البحث العلمي هي الأداة التي تقوم بموجبها المعرفة ومدى علمية هذه المعرفة. كما أن مايحدد نوع المعرفة إنما هو المنهج الذي اتبعه الباحث في الوصول إليها[٣٥]. فالعلم معارف منظمة يتم التوصل إليها، والتحقق من صحتها، وفقاً لأسلوب أو منهج معين. وبالمنهج يمكن أن نقوم المعرفة أو العلم الذي يتم التوصل إليه[٣٦].

---

(٣٥) التير، مصطفي، مقدمة في مبادئ وأسس البحث الاجتماعي، طرابلس: منشورات الجامعة المفتوحة، (١٩٩م)، ص١٩.

(٣٦) زاكي، جمال.، يس السيد أسس البحث الاجتماعي، القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٦٢م)، ص ٧

فلابد من الرجوع إلى المنهج الذي اتبع وأستتير به في الحصول على المعرفة، من أجل تقويم المعرفة التي توصل إليها الباحث، والتأكد من مدى صحتها، وصدقها، وأهميتها. أن شرح طريقة البحث الذي يقوم به الباحث بشكل واضح يعد عملية اتصال بين الباحث والقارئ؛ لأن الباحث يخبر القارئ بما قام بعمله، وكيف قام بذلك العمل البحثي؟ وهذا يجعل القارئ على بينة بما قام به الباحث وكيف قام به[٣٧].

وهنا الحديث عن الوضوح في الدراسة، وتعزيز عملية الاتصال بين الباحث والدارسين، وجميع ناشدي المعرفة على كافة الوجوه.

إن العلم يتفق في المنهج، ولكنه لايتفق في الموضوع. وأهم مايميز النظرية العلمية عن غيرها هو المنهج، الذي اعتمد عليه الباحث في التوصل إليها. ومن أهم وظائف المنهج: هو تسهيل عملية الاتصال بين العلماء الذين يشاطرون الآخرين خبراتهم. كما أن سهولة قواعد المنهج أو طريقة الدراسة ووضوحها يضع أرضية جيدة لإعادة دراسة الموضوع نفسه بواسطة الباحث نفسه أو باحثين آخرين وبالمنهج الذي استخدم في المرة الأولى نفسه. كما أن وضوح طريقة البحث يمكن من وضع محك من أجل النقد البناء للباحثين. وذلك مثل وضع بعض التساؤلات ، ومنها على سبيل المثال (١) هل الملاحظة صحيحة؟ (٢) ما الطريقة التي اتبعت في هذه الدراسة؟ (٣) هل الاختبارات الإحصائية التي طبقت مناسبة وصالحة لمثل هذه الدراسة؟ (٤) هل هناك متغيرات يمكن أن تتدخل في

---

(٣٧) Saslow, Coral a , Basic Research Methods Addison Wesley Publishing Company , California 1981 P. 347

النتائج التي يتوصل إليها الباحث دون أن يحسب حسابها؟ ونحو ذلك من المحكات التي تقيم بموجبها المعرفة[٣٨].

تداخل طرق البحث في علم الاجتماع

بما أن هناك خلطاً بين طريقة البحث والبحث نفسه، هناك أيضاً تداخل بين طرق البحث نفسها. كما أن كلمة منهج أو طريقة بحث كثيراً ما تقحم أثناء الحديث عن طرق البحث، في حين أن تلك التسميات ليس طرق بحث، بل إنها في الغالب تسمية بحوث، مثل ذلك - على سبيل المثال لا الحصر- المنهج المقارن، المنهج الإحصائي، المنهج التتبعي، المنهج الاستنباطي، المنهج الاستقرائي وهكذا. فلو أمعنا النظر في تلك التسميات لوجدنا الآتي: المنهج المقارن ماهو في الواقع إلا مقارنة دراسة مع دراسة أخرى. وهذا في الواقع نوع البحث؛ لأن الباحث يقارن دراسة معينة توصل إلى نتائجها باتباعه طريقة البحث العلمي أثناء عملية إجراء البحث بدارسة أخرى اتبع في الحصول على نتائجها طريقة البحث العلمي، وهنا يقارن الباحث بين هاتين الدراستين. وكذلك المنهج الإحصائي فإن الباحث يستخدم الأرقام والإحصاءات ويحللها باستخدام المنهج العلمي، وبذلك يصل إلى نتائج معينة من هذا الإحصاءات بإتباعه المنهج العلمي وهكذا.

وبالإطلاع على كثير من الكتب العربية والأجنبية، نجد أن معظمها يركز على أن هناك أربع طرق أو مناهج بحث هي:

---

(٣٨) Nachmias and Nachmias, **Research** , p. 16

١- منهج المسح الاجتماعي.
٢- المنهج الحقلي "الملاحظة".
٣- المنهج التاريخي "الوثائقي".
٤- المنهج التجريبي.

هذه هي الطرق الرئيسية في البحث في علم الاجتماع. ولكن ليست هناك حواجز حديدية تحول دون تداخل هذه الطرق الأربع، وتمنع الباحث، في علم الاجتماع، من استخدام أكثر من طريقة في البحث، أو تحول دون إمكانية مشاركة أكثر من طريقة في عملية بحث ظاهرة واحدة. بل إن هناك تداخلاً بين بعض هذه الطرق والبعض الآخر فيما يتعلق بالمهام التي تؤديها تجاه عملية البحث العلمي.

فعند قيام الباحث بإجراء دراسة ما، في مجال علم الاجتماع، فإنه يحدد مسألة الدراسة "مشكلة الدراسة". وهدف الدراسة، بعد ذلك يحدد مجتمع الدراسة، ثم يحدد وحدة الدراسة، بعد ذلك يحدد كيف يختار عينته "أو مصدر الدراسة" الذي يرى أنه، من خلالها، سوف يجيب عن تساؤلات الدراسة. بعد ذلك يبدأ الباحث في التفكير بشكل جدي في طريقة البحث "الإجراءات المنهجية" التي تساعده في الوصول إلى الهدف من دراسته. وكل طريقة لها إجراءاتها التي يجب على الباحث الالتزام بها في حال اختيارها للقيام بدراسته. ولكن لا يقف الباحث مكتوف الأيدي مقابل طرق البحث الأخرى، والاكتفاء بتطبيق طريقة واحدة، دون غيرها في إجراء دراسة واحدة، إلا إذا رأى أن هذه الطريقة كافية لمثل الدراسة التي يجريها، لأن

هناك دراسات قد لا يكفي تطبيق طريقة بحث واحدة لإنجازها بشكل علمي. كما أن محاولة تطبيق أكثر من طريقة بحث في دراسة ظاهرة معينة يثري المادة العلمية التي يحصل عليها الباحث، ويضفي عليها قوة. فقد يستخدم الباحث طريقة المسح الاجتماعي على عينة من مجتمع معين وفي الوقت نفسه يجري دراسة تجريبية على جزء من مجتمع الدراسة نفسه. كذلك فإن من يقوم بدراسة ما، مستعملاً طريقة المسح الاجتماعي بالمقابلة؛ لابد أن يقوم بالملاحظة أثناء مقابلته للمبحوثين؛ لأن ما يقوم الباحث بعمله أثناء المقابلة لا يقتصر على تسجيل إجابات الأسئلة التي يدلي بها المبحوث، ولكن عليه أن يدون ما يلاحظه أثناء إجابة المبحوث عن أسئلة الاستمارة، فيسجل الباحث ما يلاحظه على المبحوث والبيئة المحيطة به. لأن بهذه الطريقة قد يجمع معلومات مهمة جداً، قد تكون مكملة ومعززة للبحث نفسه. ثم إن تسجيل مثل ذلك، قد يقود الباحث ويرشده إلى تعديل بعض مفاهيمه عند وضعه خطة دراسته في بادئ الأمر. كما أنه قد يستدعي الأمر إلى تعديل في خطة الدراسة، أو حتى في الفرضيات.

ثم يجب أن لا يغيب عن ذهن القارئ أن طريقة المسح الاجتماعي غير معزولة عن طرق البحث الأخرى. لأن هذه الطريقة لا تنحصر في تصميم الاستمارة التي تستخدم في المقابلات أو المسح عن طريق البريد، أو عن طريق دليل التلفون، والتي يكون الطرف الثاني فيها أشخاصاً توجه لهم الأسئلة بطريق مباشر، أو غير مباشر. ولكن قد تستخدم

طريقة المسح الاجتماعي في عملية بحث تحليل المحتوى الذي يندرج تحت المنهج الوثائقي أو التاريخي ونحو ذلك.

منهج البحث بين دقة العلوم الطبيعية ومرونة العلوم الاجتماعية

تنقسم العلوم الكونية إلى مجموعتين: العلوم الطبيعية وما يتعلق بها، والعلوم النظرية وهو الجانب النظري من الحياة الإنسانية. ولكل نوع من هذه العلوم طريقة بحث يجب على الباحث إتباعها من أجل الوصول إلى نتائج محددة في كل من تلك العلوم. ولكن النتائج التي يروم الباحث الوصول إليها تختلف حسب نوعية العلم الذي يدرسه، وكذلك طريقة البحث التي يستنها الباحث لنفسه من أجل الوصول إلى النتائج المرجوة. وتبعاً لتقسيم العلوم إلى علوم طبيعية وعلوم غير طبيعية فإن الباحثين ينقسمون إلى باحثين في العلوم الطبيعية وباحثين في العلوم غير الطبيعية. وهنا يكون التركيز على البحث في العلوم غير الطبيعية، وبالذات العلوم الاجتماعية وبخاصة في علم الاجتماع. وسنناقش طموح الباحثين، ومحاولتهم تطبيق طريقة البحث العلمي من أجل الوصول إلى نتائج علمية محددة في علم الاجتماع. وهل بإتباع طريقة البحث العلمي، يكون باستطاعة الباحثين الحصول على نتائج تضاهي في دقتها، ودرجة الاعتماد عليها، النتائج التي يتم الحصول عليها باتباع طريقة البحث العلمي في العلوم الطبيعية. فالعلوم الطبيعية والإنسانية تشترك في خاصيتين مهمتين للبحث العلمي، وهما الدافع أو

الحاجة إلى السيطرة على الطبيعة، وافتراض أن هذه الطبيعة تسير وفقاً لقانون محتوم يمكن كشفه ومعرفته [٣٩] .

يعد علم الاجتماع علماً من وجهة نظر بعض العلماء الوضعيين، أمثال أوجست كونت؛ ذلك لأن علم الاجتماع يعتمد على منهج التجربة والملاحظة، وكذلك منهج التحليل الرياضي، شأنه شأن الفيزياء. و(كونت) من أنصار الاتجاه الوضعي، والمطالبين بالوضعية العلمية في علم الاجتماع. وبالرجوع إلى المراحل الثلاث التي تعد من أهم إسهاماته في علم الاجتماع نجده يؤكد على ضرورة إخضاع علم الاجتماع للتجربة، شأنه شأن العلوم الطبيعية. وقد سبق وأن اختار علم الفيزياء الاجتماعية اسماً لعلم الاجتماع قبل أن يغيره إلى علم الاجتماع SOCIOLOGY بعد ما علم أن هناك دراسة بهذا الاسم. ويرى "كونت" "أن الفيزياء الاجتماعية تستخدم العقل وهذا الاستخدام يعني التحليل الرياضي، بينما تستخدم الفلسفة العقل هي الأخرى، لكن بمعنى آخر يقتضي التأمل لا الترييص. ومن الضروري أن تتبع الفيزياء الاجتماعية الفيزياء المادية الرياضية، فتحلل رياضياً الظواهر الاجتماعية" [٤٠] . هناك من العلماء من يرى أنه مهماً اجتهد الباحثون وحرصوا على إتباع طريقة البحث العلمي في دراستهم الاجتماعية، لا يمكن أن يجعلهم ذلك في

---

(٣٩) قنصوة ، صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض ونقد لمناهج البحث، القاهرة : دار الثقافة والنشر والتوزيع، (١٩٨٠م)، ص ١٤ .

(٤٠) بشتة، عبد القادر، الا بستمولوجيا ، بيروت:دار الطليعة للطباعة والنشر، (١٩٩٥م)، ص ٧٤ .

مصاف ما يتوصل إليه الباحثون في العلوم الطبيعية من نتائج. يؤكد RICKMAN صعوبة تحقيق عنصر الموضوعية في دراسة علم الاجتماع بقوله "إن الوقائع في الدراسات الإنسانية هي أفكار وأحاسيس يعبر عنها الناس بأفعال فيزيقية ولاتعتني الدراسات الإنسانية بالواقعة الفيزيقية في حد ذاتها، بل بالمعنى الذي يوجد وراء تلك الواقعة الفيزيقية، والموضوعية تعنى فقط استبعاد الميول الشخصية والقدرة على إيجاد العلاقات بين الحالات الفردية[٤١]. والوسيلة التي يمكن أن يدرس بها علم الاجتماع والعلوم الإنسانية هي الفهم، ويقصد بالفهم: العملية التي تمكن من استيعاب المحتويات العقلية في كل تفسير. ويرى "بشته" أن للفهم في علم الاجتماع شروطاً إبستمولوجية هي: ١-الألفة بالطبيعة الإنسانية. ٢-معرفة خلفية الإنسان الثقافية، وبيئته الاجتماعية. ٣-الوعي بالسياقات المحددة التي تحدث فيها التغيرات، أي معرفة علة مشاعر الإنسان موضوع البحث[٤٢]. فلا يمكن بأي حال من الأحوال قبول نتائج مالم تكن مثبتة بواسطة التجربة المعملية، وهذا يمكن تحقيقه في العلوم الطبيعية، ولكن يصعب تحقيقه في العلوم الاجتماعية. ذلك لأن التحيز يعد معضلة تواجه الباحثين في العلوم

---

(٤١) بشته، الا بستمولوجيا، ص ٧٦ .

(٤٢) بشته ، الا بستمولوجيا ، ص ٧٦-٧٧

الاجتماعية. ولكن يحاول العلماء معالجة مثل هذه المعضلة باستخدام الطريقة العلمية في البحث بإحكام[٤٣].

ثم نجد (أوجست كونت) - رغم إصراره على علمية علم الاجتماع وإمكانية دراسته مثل ماتدرس المادة الطبيعية - يرى أن عدم تحقيق عنصر الموضوعية وكذلك صعوبة إجراء التجربة على الإنسان من أهم المعوقات التي تعتري الدراسة في علم الاجتماع[٤٤].

يرى معتوق: أن عدم وجود مقياس ثابت في علم الاجتماع؛ أدى إلى تأخر بروز نظريات واضحة في هذا المجال، ويعزو السبب في ذلك إلى: أولاً: سيطرة الفكر الديني والفكر المثالي على الفكر العلمي. فقد سيطر الفكر الديني على الفكر في جميع فئات المجتمع بوصفه المصدر المعرفي الوحيد الرئيس في حياة الناس. وهذا حجب ماعداه من فكر اجتماعي، وبذلك فإن محاولات التفسير الاجتماعي للظواهر الاجتماعية خارج نطاق الدين يعد خروجاً يحارب؛ لأنه لا علم إلا العلم الديني، وكل ما يحتاجه المفكر يوجد في الدين. ولعل ذلك يصدق على أوربا قبل القرن السابع عشر؛ حيث خضع العلماء والمفكرين للقمع من قبل الكنيسة؛ بسبب فكرهم. ثانياً: إن الحقل الاجتماعي حقل غني بالظواهر الاجتماعية المتعددة والمتنوعة، إلى درجة يصعب حصرها وتقنينها. فالمجتمعات في تغير مستمر ويؤدي هذا التغير بشكل

---

(٤٣) Madje, John The origin of Scientific Sociology Free Press New York ,1962) P 278

(٤٤) بشته، الابستمولوجيا، ص ٧٦.

طبيعي إلى اضمحلال ظواهر اجتماعية وظهور ظواهر اجتماعية أخرى. وهذا كما يقول معتوق: ينتج عنه مواقف يصعب التنظير لها. هذا ثم إن الأفكار والقوانين التي تعارف عليها الناس والتي تستند في الغالب، إلى مصدر ديني؛ تعطي تفسيرات سريعة ومقبولة للظواهر الاجتماعية، لذلك لم يبرز مقياس مستقل للظواهر الاجتماعية، يستند على تحليل العناصر الاجتماعية تحليلاً عقلانياً. وهذا بدوره أدى إلى صعوبة إحراز تقدم في مجال النظرية الاجتماعية. وأخيراً: فإن التجربة الاجتماعية التي عنصرها الإنسان الذي يتغير ويختلف باختلاف وتغير الظروف المحيطة به، تختلف عن تكرار التجربة الطبيعية التي هي تكرار لأشياء مادية، ثم إن التنويع والاختلاف من الصفات الملازمة للظواهر الاجتماعية، لذلك فإن المقياس الذي تقاس به متنوع وغير ثابت. هذا بعكس العلوم الطبيعية التي يكون المقياس الذي تقاس به ثابتاً. فالإنسان تتغير استعداداته، ومشاعره، ومزاجه، وغير ذلك، من وقت لآخر، ولذلك فإن المقياس الذي يتعامل به الباحث في الظواهر الاجتماعية هو مقياس نسبي، بعكس المقياس الذي يتعامل به الباحث في العلوم الطبيعية[٤٥]. ومع الإصرار على أنه لا يمكن مقارنة النتائج التي يمكن الحصول عليها بإتباع المنهج العلمي في دراسة العلوم الطبيعية، بالنتائج التي يمكن الحصول عليها بإتباع المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية، إلا أن كثير من العلماء يرون أنه منذ القرن التاسع

(٤٥) معتوق، منهجية العلوم الاجتماعية، ص ٧٤-٧٧؛ قنصوة ، الموضوعية في العلوم، ص٤١٦.

عشر برزت دراسات ذات قيمة علمية جيدة، ولكن لا يمكن أن توضع في مصاف العلوم الطبيعية. ويناقش (دور كايم) علمية البحث في العلوم الاجتماعية، ويرى أنها تحاول أن تحاكي العلوم الطبيعية"... وما نطالب فيه أن يكون عالم الاجتماع في حالة ذهنية مماثلة لعلماء الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا، عندما ينطلقون في منطقة مجالهم العلمي غير مكتشفة بعد"[٤٦]. فهو يرى: أنه يجب على عالم الاجتماع أن يتهيأ لاكتشاف عالم مجهول بالنسبة له مثله مثل الباحث في العلوم الطبيعية.

ركزت كثير من الدراسات الحديثة على التقليل من أهمية تطبيق المنهج العلمي في دراسة علم الاجتماع، وأن الإجراءات المنهجية مثل المنهج التجريبي يطبق على البحوث في العلوم الطبيعية، ولايمكن تطبيقه في البحوث الاجتماعية. ولكن في الآونة الأخيرة تنامى الاتجاه نحو تطبيق طريقة البحث العلمي في دراسة العلوم الاجتماعية على نطاق واسع. هذا بالرغم من أن العلوم الاجتماعية تعتمد على الجوانب الرمزية، والتفسير غير المباشر، التي تتصف به الحياة الاجتماعية التي تتسم بالتغير السريع والديناميكية والتفاعل. ثم إن معنى الحياة الاجتماعية يخلقه الناس من خلال حياتهم الاجتماعية من خلال المعاني

---

(٤٦) دوفينيو، جان ، دوركمايم، ترجمة سعود الخوند وسليم مكسور، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر (سلسلة اعلام الفكر العالمي)، (١٩٧٨م)، ص ١٠٠.

والنشاط الذي ينتج عن الأفراد أنفسهم، وهذا شيء مختلف تماماً عن العلوم الطبيعية الثابتة غير المتغيرة[٤٧].

يفترض أن المناقشة السابقة هي أعلى مستوى علمية علم الاجتماع، وأن ذلك قد اقترب من طموحات الباحثين في محاولاتهم للاقتراب من هذا العلم. وزعم البعض أنه بإتباع طريقة البحث العلمي يمكن أن تضاهي النتائج التي يصلون إليها، ولو نظرياً، النتائج التي يصل إليها الباحثون في العلوم الطبيعية.ولكن ما بال من يبحث في المجتمع باستخدام المنهج الحقلي. هذه الطريقة أو المنهج هو في ذاته منهج كيفي، يعتمد على الملاحظة بالمعايشة والملاحظة المباشرة، أو غير المباشرة، ونحو ذلك. ولعل من ينادي متحمساً بتطبيق طريقة البحث العلمي في دراسة علم الاجتماع من أجل جعل هذا العلم يضاهي العلوم الطبيعية في منهجها ونتائجها، لا يروق له هذا المنهج، أي المنهج الحقلي. ولكن رغم أن المنهج الحقلي يعطي معلومات قيمة، إلا أنه، في الغالب، ينقصه التكميم ومن ثم التعميم الذي هو من أهم الركائز التي يستند عليها الداعين لعلمية علم الاجتماع.

والدراسات الحقلية غالباً ما تجرى على المجتمعات الأقل تعقيداً. وسنناقش جزءاً من هذا المنهج الحقلي، وهو: "الدراسة باستخدام الاثنوبيوغرافيا". ففي المجتمعات غير المعقدة، وخاصة بعض المجتمعات

---

(٤٧) معتوق ، منهجية العلوم الاجتماعية ص ٨٦-٨٧ ؛

Knor,K., "Social Scientific Method or what do we male of the distinction Between the natura; and social sciences", in the Michael \Brenner, (1981) p. 27-9

الأفريقية يكون الاعتماد على الدراسات البيوغرافية أمراً ممكناً؛ لأن الفرد مرآة للمجتمع الذي يعيش فيه، ويعكس عادات ذلك المجتمع وقيمه. ومن الممكن أن تؤخذ شريحة من المجتمع وتتم دراستها، ويمكن للباحث أن يتعرف على المجتمع من خلال الشريحة التي درسها؛ لأن تلك المجتمعات متجانسة وبدراسة سيرة شخص، يمكن أن تعرف المجتمع الذي يوجد فيه الفرد أو الأفراد الذين تمت دراستهم. يقول الهراس (الأنثوبيوغرافية) لا تجعل من الشخصية في حد ذاتها بؤرة اهتمامها، بل السيرة ليست بالنسبة لها سوى وسيلة للتعرف على الأحداث والوقائع ومجمل السيرورات والعلاقات الاجتماعية العامة). والأثنوبيوغرافية، بتعبير آخر هي "البيوغرافية الاجتماعية والثقافية للكائن الاجتماعي، الذي لا يشكل الراوي سوى أحد مكوناته"[٤٨]. فالفرد يتفاعل مع مجتمعه من خلال الأدوار المعرفية والثقافية التي يزوده بها مجتمعه. ثم إن سيرة الفرد تعكس ثقافة ذلك المجتمع الذي هو جزء منه.

إن النقاش حول علمية العلوم الاجتماعية من عدمها، وكذلك المناهج التي تتبع في تدريسها، ظل موضوع خلاف مستمر، بين الباحثين والمنظرين وكذلك بين المتحمسين لهذا العلم والأقل حماساً منذ محاولة بلورة علم الاجتماع. وهناك من يرى أن هذا العلم ممكن أن يكون

---

(٤٨) الهراس، المختار، منهج السيرة في السوسيولوجيا، تحرير عبد السلام بن عبد العالي وآخرون، في إشكاليات المناهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، المغرب: دار توبقال للنشر، (١٩٨٧م)، ص٨٥.

صنواً للعلوم الطبيعية، ولا يقل عنها لا في علمية نتائجه، ولا في المنهج الذي يتبع في تدريسه. وهناك من يرى أن علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، بصفة عامة، لازالت في المهد ولم تصل إلى درجة الحبو بالنسبة لما عليه العلوم الطبيعية من ثبات في النتائج والمنهج. وبين هؤلاء وأولئك من هو وسط.

والواقع أن النتائج التي يتم التوصل إليها في العلوم الاجتماعية نسبية وليست نهائية. والمقصود بذلك، أنه لا يمكن أن نعزو نتيجة معينة بصورة قطعية لسبب بعينه دون غيره. بينما يمكن تطبيق ذلك في العلوم الطبيعية. وأن من يدعي أنه؛ بتطبيق المنهج العلمي على العلوم الاجتماعية يستطيع أن يحصل على نتائج مماثلة للنتائج التي يحصل الباحث في العلوم الطبيعية عليها إنما يدعي مثالية مفرطة. فلا تجد باحثاً في العلوم الاجتماعية يجزم بصحة ما يتوصل إليه بصفة قطعية. بل نجد أن علماء الاجتماع عند قراءتهم البحوث التي تركز على الظواهر الاجتماعية، ويقع بصرهم على أحكام قطعية، يحكمون بعدم حيادية الباحث وعدم موضوعيته، لأن البحوث الاجتماعية يعتريها النقص، مهما حاول الباحث تأصيل علميتها ووضعها في مصاف العلوم الطبيعية. والتحيز وعدم الموضوعية تلاحقان الباحث في العلوم الاجتماعية، حتى وإن حرص أشد الحرص. فقد يؤدي حرصه الشديد على التمسك بالموضوعية، بأن يتحيز ضد ما يرغب أن لا يتحيز معه. مثال لو فرض أن هناك باحثاً من جماعة أو مجتمع وفي الوقت نفسه يقوم بدراسة ذلك المجتمع، فإنه يحرص على أن يتمسك بالموضوعية والعلمية، ويكون شديد الحرص على أن لا يتحيز مع مجتمعه، وقد يتعدى حدود الموضوعية وعدم التحيز، إلى حد أنه يتحيز ضد ذلك

المجتمع، وبذلك يقع في عدم الموضوعية. وهناك اختلاف في تقويم الأفراد للأشياء والظواهر كل حسب خلفيته الاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية، وكذلك القيم الاجتماعية التي يؤمن بها الفرد، بصفته عضواً في جماعة تختلف باختلاف الجماعات التي ينتمي إليها كل فرد. ثم أن الفرد قد يجد نفسه عضواً في أكثر من جماعة، وقد يصطدم بقيم كل جماعة على حدة وهكذا.

ثم إن كلمة تجربة لها أكثر من مدلول. ففي الحياة العادية عندما يقول شخص ما، إن طعم هذه الفاكهة حلو، أنا جربتها فإن ذلك يكون بالتجربة الحسية عن طريقة حاسة الذوق. وهناك التجربة في العلوم الطبيعية عندما يقوم الباحث بمزج بعض من المكونات الكيميائية، وينتج عن ذلك مكون مختلف، فإن من يجري التجربة الطبيعية بعد ذلك في هذا المجال أي التجربة نفسها والمنهج نفسه سوف يحصل على النتيجة ذاتها، حتى وإن كان أحد الباحثين في القطب الشمالي، والثاني في القطب الجنوبي، والثالث في طوكيو، والرابع في جزر هاواي. إما التجربة في العلوم الاجتماعية فإنها دقيقة، ولكن يجب أن لا نتوقع أبداً أن تكون ثابتة، وأننا سوف نحصل على النتيجة نفسها التي حصل عليها أحد الباحثين في هذا المجال قبلنا. حتى وإن كنا قد نحصل على نتائج قريبة من ذلك في بعض الأحيان. وهذا عائد لنوع المادة المدروسة، وهي سلوك الإنسان الذي لا يمكن تثبيته ودراسته، كما ندرس المواد الطبيعية. فالإنسان هو الإنسان، فمثلاً كل يوم نرى زيداً ملامحه، لم تتغير، اسمه لم يتغير، لونه لم يتغير، ولكن ممكن أن نراه ساعة ضاحكاً، وساعة باكياً وهكذا. فالإنسان كتلة من المشاعر والأحاسيس والانفعالات غير المرئية، ولا

يمكن أن نتنبأ بها في جميع الأحوال، حتى زيد هذا عندما يكون جالساً ويقبل عليه ثلاث أفراد فإن أحاسيس هؤلاء الأفراد تجاه زيد في اللحظة نفسها غير متوافقة وغير متطابقة في الغالب. فقد ينظر إليه الفرد الأول بارتياح وانبساط، أما الثاني فقد ينظر إليه بتحفظ، أما الثالث فقد ينظر إليه باشمئزاز وهكذا.

خاتمة

يعد المنهج من أهم المفاهيم في أي دراسة. وقد ناقشنا هذا المفهوم في علاقته ببعض المفاهيم الأخرى. وتحدثنا حول التمييز بين العلم والمعرفة، وكيف أن العلم أكثر تخصصاً من المعرفة، ولكن المعرفة تشمل جميع المعارف بما فيها العلم. وبمراجعة كثير من الأدبيات، نجد أن كلمة (منهج بحث) تستخدم بمعنى (طريقة بحث) والعكس صحيح. أما التفريق بينهما: فإنه ناتج بسبب الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، هذا إذا استثنينا كلمة (منهج) باللغة الإنجليزية Methodology التي يقصد بها دراسة طرق البحث أو مناهج البحث في حد ذاتها أو إبستمولوجيا المناهج. ثم إن (منهج البحث) أو طريقة البحث هي قالب أو إجراء يستعمل عند إجراء أي دراسة علمية، بينما (البحث العلمي) يطلق على نوعية البحث أو النشاط الذي تم إتباع طريقة البحث العلمي في دراسته والوصول إلى نتائجه. كذلك تعد طريقة البحث أو منهج البحث العلمي وسيلة أو محكاً لتمييز الدراسة أو البحث الجيد من سواه، ويعد كذلك وسيلة تفاهم، أو حلقة وصل بين الباحثين، لتمييز البحث وتقويمه حسب الأعراف العلمية.

وإذا نظرنا إلى طرق البحث في علم الاجتماع، نجد أنه بالإمكان استخدام أكثر من منهج أو طريقة بحث في إجراء دراسة واحدة. وكلما تناول الباحث الدراسة بأكثر من طريقة بحث كانت النتائج التي يتوصل إليها أكثر فائدة وأكثر علمية.

وإذا قارنا ما يتوصل إليه الباحث من نتائج في العلوم الطبيعية، بما يتوصل إليه الباحث في العلوم الاجتماعية من نتائج، نجد أن الفرق شاسع، وأنه ليس بالإمكان اعتبار أن صدق هذه وتلك في منزلة واحدة. لأنه مهما حاول الباحثون في العلوم الاجتماعية اللحاق بدقة ما يتوصل إليه الباحثون في العلوم الطبيعية، لن يستطيعوا على الأقل في العصر القريب. وهذا راجع بالدرجة الأولى لاختلاف طبيعة المادة المدروسة لكل من العلمين. فمادة الدراسة في العلوم الطبيعية هي مواضيع جامدة ملموسة، بينما مادة الدراسة في العلوم الاجتماعية غير ملموسة، قوامها مشاعر الناس وأحاسيسهم وآرائهم التي تصعب السيطرة عليها وتقنينها والتنبؤ بها.

قائمة المصادر:

الصفدي، أحمد عصام.، تصنيف المعرفة والعلوم، الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

دوفينيو، جان.، دور كايم، ترجمة سعود الخوند وسليم مكسور، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سلسلة إعلام الفكر العالمي، (١٩٧م).

جمال زاكي والسيد يس.، أسس البحث الاجتماعي، القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٦٢م).

ديكارت رينيه.، مقالة الطريقة لحسن قيادة الحسن وللبحث عن الحقيقة، (١٩٧٠م)، ترجمة وتقديم وتعليق جميل صليبا، (١٩٧٠م)، بيروت: (د.ت).

صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض ونقد لمناهج البحث، القاهرة: دار الثقافة والنشر والتوزيع، (١٩٨٠م)

عبدالباسط محمد حسن.، أصول البحث الاجتماعي، مصر: مكتبة وهبة، (١٩٨٥م).

بدوي عبدالرحمن.، مناهج البحث العلمي، الكويت: وكالة المطبوعات، (١٩٧٧م).

العبد عبداللطيف محمد.، مناهج البحث العلمي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، (١٩٧٨م).

عبدالقادر بشته.، الإبستمولوجيا، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، (١٩٥٥م).

الهملالي عبدالله عامر.، أسلوب البحث الاجتماعي وتقنياته، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس(١٩٨٨م).

أبو طاحون عدلي علي.، مناهج إجراءات البحث الاجتماعي، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الثانية، (١٩٩٨م).

أحمد غريب محمد سيد.، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، (١٩٨٣م).

معتوق فردريك.، منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (١٩٨٥م).

عمر محمد زيان.، البحث العلمي: مناهجه وتقنياته، جدة: مطبعة خالد الطرابيشي، (١٣٩٥هـ).

المختار الهرأس.، منهج السيرة في السوسيولوجيا، في إشكاليات المناهج في الفكر العرب والعلوم الإنسانية، تحرير عبدالسلام بن عبدالعالي وآخرون، المغرب، دار توبقال للنشر، (١٩٨٧م).

الترمصطفى عمر.، مقدمة في مبادئ وأسس البحث الاجتماعي، طرابلس: منشورات الجامعة المفتوحة، الطبعة الثالثة، (١٩٩٥م).

الحصادي نجيب.، نهج المنهج، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (١٩٩١م).

رزق الله نهار.، دراسات منهجية في تحليل النصوص، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (١٩٨٤م).

المراجع الإنجليزية:

Brenner, M, (Editor), Social Method and Social Live, London: Academic press,(1981).

Karin, K, Social Scientific Method or What do we make of the distinction between the natural and social sciences in the Michael Brenner,(1981), PP.

Madje , John The origin of Scientific Sociology Free Press New York, 1962

McNeill, P, Research Methods, London, Second edition (1990).

Nachmias, D & Ch. Nachmias, Research Method in the Social Sciences, New York: Martin's press, second edition,(1981).

Poenoe, D, Sociology, New Jersey: Printice-hall inc, fifth edition, (1983).

Robertson, I, Sociology New York: Worth Publishers inc, second edition, (1981).

Saslow, Coral a, Basic Research Methods Addison Wesley Publishing Company , California, (1981).

Seidman, I, Interiewing ad aualitative research, New York: Teacher College Press, second edition, (1988).

New International Dictionary, Third edition

وثيقة لأعيان مدينة الجزائر
بتاريخ ١٦ شعبان ١٢٤٦هـ / ٣٠ يناير ١٨٣١م حول:
أحمد بوضربة وبداية تبلورالشعور الوطني

د. محمد أحمد أمين *

ملخص:

هذه الوثيقة تؤرخ لحادث هام في تاريخ الجزائر، بعيد سقوطها في يد الاحتلال الفرنسي، وهو بداية تبلور ما يمكن تسميته شعورا وطنيا في أوساط المقاومة التي ندبت نفسها لصد المستعمر. وأهميتها تكمن في كون الموقعين عليها نأوا - من خلال مضمونها - بأنفسهم عن أي ارتباط أو ولاء للحكم التركي البائد. والوثيقة تساعد في الكشف عن دور ما يمكن تسميته النخبة المتنورة والوازنة في مجتمع مدينة الجزائر، وهم جماعة الأعيان من علماء وقضاة وتجار وأغنياء وحرفيين، في مقاومة الاحتلال ودفع مظالمه من مواقعهم. فعلى عكس المقاومة المسلحة وبموازاة معها، ارتأى أصحاب هذا الاتجاه ضرورة مواجهة المستعمر بكل الوسائل السلمية، بما في ذلك رفع الملتمسات وتقديم العرائض الاستنكارية ومقارعة الاحتلال بالحجج، وهو ما يمكن تسميته بالبوادر الأولى للمقاومة السياسية المنظمة. وقد أجمع أصحاب هذه الوثيقة على ترشيح أحمد بوضربة، التاجر المتعلم والمتقن للغة الفرنسية، ممثلا ووسيطا بين سكان مدينة الجزائر وبين إدارة الاحتلال للذب عن حقوقهم ورعاية مصالحهم. وقد دعموا ترشيحه لهذه المهمة بكشفهم عن جوانب من شخصيته الدالة على صلاحيته لهذه المهمة دون غيره. وقد حاولنا من خلال تحليلنا لهذه الوثيقة الهامة البحث في أبعاد وخلفيات ذلك الترشيح وإبراز أهمية مضمون هذه الوثيقة.

---

* أستاذ التاريخ الحديث المشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود.